أين القومية العربية من السياسة الأمريكية

تحت هذا العنوان كتب حامد ربيع:

« سوف أظل عربيًا .

ليس فقط لأننى هكذا ولدت ، ولا يعود ذلك فقط لإيمانى بأن حضارة آبائى هى تعبير عن وجودى الذاتى ، وهويتى القومية وحقيقتى الكامنة ، حيث لو ابتعدت عنها لشوهت تكوينى النفسى ووظيفتى التاريخية ، وليس فقط لأن العناية الإلهية التى اختارت أرض أجدادى لأن تكون هادية ومبشرة ، لتضع على عاتق الأمة التى أنتمى إليها وظيفة القيادة للإنسانية المعذبة ، وليس فقط لأننى عقب ربع قرن من التشرد الفكرى - بين حضارة وأخرى - لم أجد أى حضارة غير تلك التى أنتمى إليها ، تجذبنى وتخلق فى ذاتى الإعجاب والانبهار الذى وحده قد يبرر أو يفسر الخيانة والتخلى، ولكن لأن هناك مجموعة أخرى من الأسباب تشدنى إلى أن أتحدث مع أولئك الذين شاءت الأحداث إلا أن تجعل لهم وزنًا فى عالمنا المعاصر . أولئك الذين يخرجون علينا من آن لآخر يشنفون آذاننا بأسطورة الحضارة الغربية تارة ، وتارة أخرى بحديث السلام، كذلك تلك المجموعة من الأذناب - التى تتكون من حصيلتها ما نسميه بظاهرة « **الزفة السياسية** »- فى حاجة إلى نوع من المنطق واللغة التى لا بد وأن تفرض عليهم أن يتساءلوا بينهم وبين أنفسهم عن حقيقة تلك الموجات الكاذبة التى تحيط بنا ، والتى ليست إلا تعبيرًا عن ظاهرة المرض التى هى بدورها تملى وظيفتها ؛ لأنها ضرورة تفرضها طبيعة الوجود الإنسانى ، حتى نستطيع أن نكشف مدى صلابة إيماننا ورسوخ عقيدتنا ، ولماذا نذهب بعيدًا ؟ ألم يقل رسولنا الكريم : « خاطبوا الناس على قدر عقولهم»؟

(*) مجلة " L Avant Grade Arabe " الطليعة العربية، فرنسا العدد 98، فى 25 آذار - أبريل - 1985 ، ص 26 وما بعدها .

obeikandl.com

ونحن نريد أن نخاطب اليوم أولئك القادة العرب ، ومن يسيرون وراءهم من رجال «**الزفة السياسية**» فى ذلك الذى يسمى بعملية « التسوية » وتارة أخرى « المبادرة المصرية»، وذلك دون الحديث عن عملية الحج من جانب أغلب زعمائنا إلى « مكة الجديدة» «واشنطن» عاصمة الامبراطورية الكبرى ، لا بد وأن يتساءل القارئ : وما صلة ذلك بحديثنا عن العروبة والقومية العربية ؟

مهلاً يا بُنَى فلنبدأ من المقدمات .

علينا أن نقدم بمجموعة من الملاحظات :

أولاً : تحليل أى ظاهرة قومية لابد له من مقدمات ثلاث : مفاهيم أولاً ، ومواقف ثانيًا ، وسياسات ثالثًا .

المفاهيم : هى مجموعة المدركات التى يتحدد من خلالها إطار معين للوجود الإنسانى، ولموضع مجتمع معين من ذلك الوجود الإنسانى .

ثم مواقف : وهى تعبيرات مختلفة فى مواجهة الأحداث ، فكرية أو سلوكية- تترتب على ذلك الإدراك وعلى مستوى القناعة به ، لتعلن عن قدرة وصلاحية للتعامل ، باسم تلك المفاهيم والمدركات .

القومية : هى حرب سياسية ضد الذات أولاً ؛ لأنها صراع ضد المجهول ، وضد الآخرين ؛ لأنها تعنى انتزاع حقوق الذات من أنياب الذئاب ثانيًا . وهذا لا يتأتى إلا من خلال المواقف الفردية والجماعية ، وهى ثالثًا سياسة ، فهى تعنى تعامل بعيد المدى مع كل من يقف ضد تغيير وضع معين سواء لخدمة مصالحه الآنية والمستقبلية ، أو الرهبة إزاء بروز عملاق جديد بما يعنيه ذلك من احتمالات فى تغيير فى موازين التعامل ، وهذا لا يتم إلا من خلال التخطيط للحركة فى تنقلاتها المتتابعة ، من موقف لموقف ، ومن نصر إلى نصر، أو من هزيمة إلى نصر ، بل ومن هزيمة لاحتمالات هزيمة أخرى .

ثانيًا : فى هذا العرض المتتابع لفلسفتنا القومية ، لا بد وأن نتابع المدركات ، ثم من خلالها نجمع المواقف ونستخلص عقب ذلك السياسات ، ولكن الظروف التى تعيشها الأمة العربية والمأساة التى تدور حولنا ، قد تفرض علينا أن نقدم أو نؤخر ، وإذا كنا اليوم ننتقل بلا مقدمات إلى جزئية متعلقة بالسياسة الدولية - فى علاقتها بالقومية العربية - فليس ذلك خروجًا عن الموضوع ، ولكنه تغيير فرضته الظروف فى عناصر المتابعة المنطقية للتحليل ، بل سوف نرى فى موضع آخر كيف أن أحد نواحى النقص - فى تقاليد الفكر القومى العربى - هو أنه لم يُولى الإطار الدولى للتعامل مع الوجود العربى موضعه من الأهمية .

ثالثًا : كذلك علينا أن نتذكر أن أى قومية جديدة لا بد وأن تُواجَه بالعداوة من جميع القوى الدولية ، هذه حقيقة يعرفها كل من يرصد التاريخ ، يقول « ديجول » فى حديثه التاريخى عقب عودته من منفاه وتحرير فرنسا : « يا أمتى ، كل قومية وحيدة فى صراعها وليس لها سوى إرادتها النقية الصافية » ولا ينتظر زعيم حقيقى يقود أمة فى تأكيد تكاملها القومى من حوله سوى أعداء وعداوات ، وبراعته هو فى أن يُحيل العداوة إلى صداقة ولو مؤقتة وإن لم يستطع فعليه أن يعرف جيدًا أنه لا صديق له سوى شعبه وإرادة ذلك الشعب والتحدى الحقيقى الذى يتعين عليه أن يواجهه الزعيم ، هو أن ينصهر هو وشعبه فى بوتقة واحدة . هذه هى إرادة القدر ، وهذه هى قصة التاريخ ، والأمثلة والنماذج لا تحصى . «بسمارك » فى ألمانيا « وكافور » فى إيطاليا يشهدان على هذه الحقيقة .

رابعًا : الاستسلام له منطقه وله استراتيجيته ، منطقه هو استجداء الحقوق واستراتيجيته أساسها الحصول على الثمن مقدمًا من جانب ، وشىء خير من لا شىء من جانب آخر !

نحن لسنا فى مقام الدفاع عن هذه الاستراتيجية ، ولكننا نود أن نوضح لأولئك الذين يتحدثون عن ذلك أن هذه الممارسةبدورها فى حاجة إلى حنكة معينة . « السادات » عندما انطلق فى هذه الاستراتيجية لم يخطئ فقط فى أن اتبع استراتيجية الاستسلام ، ولكنه- وهذا ما هو أخطر - أخطأ فى أنه لم يفهم استراتيجية الاستسلام إن وثق بنفسه وقدراته وصلاحية أعوانه فكانت الطامة التى دفع وحده ثمنها لقد فهم منطق الإسلام وهو استجداء الحقوق ، ومن ثم عملية التمثيل ، وإعادة التشكيل الكلى لإطار الحركة التى انطلق منها فأسلوب « البذاءة اللفظية » ، ثم منهاجية الاستعانة بعناصر هو أول من احتقرها فى جميع مراحل تاريخه السياسى ، أمور جميعها لا يمكن تفسيرها إلا من هذا المنطلق ولكن لم يفهم منها أن هذا المنطق يفرض بدوره استراتيجية معينة ، فكانت الكارثة . فالكارثة برزت أولاً فى صيف 1977 عندما اندفع فى زيارة القدس ليفاجىء السياسة الأمريكية ، وبرز ثانيًا فى صيف 1981 عندما وجد الرئيس « ريجان » يقف منه موقف السلبية والترفع فعاد إلى مصر وقد فقد توازنه فانطلق فى رحلته المعروفة التى كلفته حياته .

ولكن ماذا نريد من هذه الملاحظات ؟

إن السؤال الذى نطرحه بصراحة ووضوح هو : هل تساءل أولئك الزعماء والقادة الذين ارتبطوا بالأحداث السابق ذكرها ؛ والذين يتبارون فى الحج إلى « واشنطن» عن ماهية حقيقة الإدراك الأمريكى للقضية العربية ؟ وبصفة خاصة : ما هى خصائص الإدراك السائد فى الإدارة الأمريكية الحالية والتى كان يقف على قمتها آنذاك الرئيس « ريجان » ؟

« واشنطن» تنظر إلى الوطن العربى على أنه ينتمى إلى العالم الثالث ، ومن ثم يخضع لنفس المفاهيم التى يخضع لها ذلك العالم فى الإدراك الأمريكى . يكمل ذلك الموقع الاستراتيجى من جانب ، وسيطرة تقاليد الحضارة غير الكاثوليكية من جانب آخر ، ومن ثم تتحد عناصر هذا الإدراك بأربعة متغيرات أساسية :

أولاً : مواجهة أى حركات ترمى إلى تغيير الوضع القائم فى أى بقعة من أجزاء الوطن العربى . إن أى حركة من هذا النوع هى نوع من الإرهاب الدولى ، يقول « هيغ» بهذا الخصوص بصراحة مخيفة : « إن مفهوم مقاومة الإرهاب الدولى - وهو الاصطلاح الذى استخدم للتعبير عن حركات التغيير فى دول العالم الثالث ، بما فى ذلك الوطن العربى - يجب أن يحل فى اهتمامنا موضع الدفاع عن حقوق الإنسان » .

ثانيًا : مواجهة حركات التغيير ، يجب أن تتم من خلال استخدام القوة العسكرية ، وقد وضع«البنتاجون » لذلك برامج عديدة للتدريب ضد حرب العصابات فى نماذج متعددة: حرب العصابات فى المناطق الجبلية ، حروب الكر والفر فى الصحارى المتسعة ، حركات المقاومة للتدمير فى المدن ومواقع التجمع السكانى ، ومنطق التعامل مع حركات التغيير فى الوطن العربى هو فقط القوة و القدرة العسكرية ، والذى يعنى القيادات الأمريكية المعاصرة هو القدرة على الاستئصال الجسدى والعضوى لأى قوى ثورية ، أو رافضة للتعاون وها هى القيادة الأمريكية قد أدخلت فى تخطيطها مفهوم التعامل داخل التجمعات السكانية. والواقع أن الحركات العسكرية فى داخل هذه التجمعات تفرض أبعادًا جديدة : العدد الضخم من السكان مع ضيق المساحة الأمر الذى يقيد من حرية الحركة ، بل فى كثير من الأحيان - إن لم يكن فى أغلبها - انعدام أو ضيق الطرق ، وذلك فضلاً عن تعدد الأماكن الصالحة للاختفاء وللمفاجأة ، وخبرة « بيروت » فرضت على القيادة العسكرية الأمريكية إعادة النظر فى جميع مدركاتها . بعض خبرائها يعتقد أن ثورة عنيفة فى مدينة كـ «القاهرة» يستحيل إخمادها بأى قوة عسكرية تقليدية مهما بلغ حجمها ، وعدد المدن المرشحة لنفس الظاهرة فى الوطن خلال فترة لن تتجاوز خمسة عشر عامًا أكثر من عشرة مدن عملاقة منها على سبيل المثال « بغداد ، ودمشق ، والرياض ، والإسكندرية ، وتونس، والجزائر ، والدار البيضاء».

ثالثًا : الأدوات التى تستند إليها الاستراتيجية الأمريكية الجديدة فى تعاملها مع الوطن العربى عديدة ، ولكن يكفى أن نؤكد على البعض منها ، ورغم أن هذا الموضوع ظل حتى وقت قريب تحيطه السرية، إلا أن التقرير المشهور الذى وضعه الأمريكى « كلارك » المستشار بمجلس الأمن القومى الأمريكى ، والذى استطاعت مجلة « لوموند » الدبلوماسية الفرنسية

أن تحصل عليه ، وتـنشره كاملاً كافـيًا للكشف عن الكثير من الخفـايا ، ونحن نستطيع أن نؤكد استنادًا إلى ذلك التقرير على الأدوات الأربع التالية :

أ - مفهوم « الطب الوقائى ».

ب - الثورة المضادة .

جـ - التدخل السريع .

د - التركيز على قوة النيران المكثفة .

أدوات أربع ولكنها تنبع من مفهومين أسـاسيين : الوقاية أولاً خير من العلاج ، ومن ثم يجب ألا ننتظر حتى تنفجر الثورة أو حركات الرفض بل يجب اقتطاعها مسبقًا . والثانى عندما نتدخل فنلدع جانبًا مفهوم التـدرج فى التدخل وإنما يجب أن يكون هذا التدخل كثيفًا صاعـقًا . وبعبارة أخـرى : أول ما يجب أن تهـتم به الإدارة الأمريكية هـو عملية حـصر حقـيقية للقـوى والقيادات القادرة أو الصـالحة لأن تكون بؤرة رفض على قسط مـعين من الفاعلية . وعندما تكتشف الإدارة الإمريكية ذلك عليهـا أن تلجأ لجميع الوسائل لاستئصال تلك القوى والقيـادات : الترغيب والتطويع خطوة أولى . وإن لم تفلح فـالقبض والسجن خطوة ثانية ، وإلا فالقتل والاستئصال الجـسدى ، وهذا ما يسمح لنا بأن نفهم الوظيفة التى تؤديها مـراكز البـحوث المنتشـرة خلف مزاعم الأهداف والاعـتبارات الأكـاديميـة ، يقول «كلارك» فى تـقريره السـالف ذكره : « **ولتستطيع هذه السـياسة أن تكون مـجدية ، فـإن السيـاسة الأمريكية تـفترض الملاحظة المستـمرة لسلوك المواطنين من خـلال البوليس وناقلى المعلومات للإدارة الحكوميـة وكذلك من خلال وضع نظام حديث للتصنت والمراقـبة فضلاً عن معالجة المعلومات** » .

رابعًا : خلق تحالف استراتيجى يحتضن المنطقة ، فالتحالف الأمريكى الأطلنطى حقيقة قائمة . والتـحالف أو التعاون الاسـتراتيجى « الإسرائيلى » الأمـريكى الذى وُقّع عليه فى نوفمبر / تشرين الثانى 1983 . ورغم أن بنوده لا تزال سرية إلا أنه يقود إلى نتيجة واضحة، وهى أن إسرائيل قد أضحت الحليف الثـابت لحلف الأطلنطى من خلال ارتباطها بالولايات المتحدة . فالتعـاون بين القوات الثلاث أضحى حقيقة كاملة على مـستوى التخطيط وتبادل المعلومات ومشاكل الأمن ، وكل ما له صلة بعملية المواجهة ، سواء لدول المنطقة أو الدفاع عن المنطقة .

ما الذى يعنيه ذلك ؟

ثمـة مـجمـوعة مـن النتـائج يجـب أن يُدخلـها رجـل الدولـة المسـؤول فى وطننا العربى فى اعـتبـاره وأن يجـعل منهـا مـحـور تعاملـه مـع السـياسـة الأمريكـيـة ، ويعـنينا

منـها أساسًا ثلاثة نتائج :

أولاً : الإدارة الأمريكية لا يمكن أن تقف من إمكانيات التغيـير فى المنطقة إلا موقف الرفض العنيف . إنها تدافع عن الوضع القـائم وتحمى ذلك الوضع القائم بجـميع الوسائل إلا إذا كان ذلك التـغيير فـقط لصالح سياسـتها ، الوضع القـائم يعنى أولاً التخلف وثانيًا التجزئة ، ولذلك فهى تعمل على تنمية التخلف ، وتدفع إلى ترسيخ التجزئة وكما دافعت « بريطانيا» عن القوى الرجعية ، حتى من خلال جامعة الدول العربية ، فكذلك «واشنطن» لا يمكن أن تدافع إلا عن كل ما يمثل الجمود والتيبس بل إنها تخطط لتفرغ المنطقة من كل عناصر التغـيير والتجديد ، ولنتذكـر سياستهـا التى أضحت معروفة بصدد تشـجيع هجرة العقول العربية واستنزافها .

ثانيًا : ثم يأتى فـيكمل تلك النظرة إلى المنطقة عـلى أنها إحدى بـقاع الخطر بالنسـبة لاحتمالات فيضان الشعوب الملونـة ، لقد تجمعت فى هذه المنطقة بالنسبة للإدراك الأمريكى جمـيع أسبـاب العداوة ، شـعوب ملونة أولاً ، وهى شـعوب لا تدين للحـضارة الغـربية الكاثوليكيـة ثانيًا ، وهى تناصـب إسرائيل الطـفل المدلل العـداء ثالثًا ، جمـيع المدركـات الأمريكية تفـرض على قيادة الدولة الامبراطورية الوقوف من التطور القـومى العربى موقف العداوة المميـتة ، فـالإيمان بالوظيفـة القيادية للعـالم الرأسمالى الكاثـوليكى الغربى الذى تتزعمه الولايات المتحدة ، وهو وحده المحور الحقيقى للقناعة الأمريكية ،هذه القناعة لا بد وأن تجد امتدادها فى السيـاسة الخارجية ضرورة العودة إلى تقاليـد أمريكا للأمريكيين النظرة إلى القارة الأمريكية على أنها بمثابة قلعة محـاصرة ،والاعتماد فقط على الذات وعدم الثقة فى أى حليف سوى الكيان الصهيونى ، **إن الحرب العالمية الثالثة قد بدأت مقدماتها** ، وأحد هذه المقدمات هو الاستـئصال التدريجى المقنع للشعوب الملونة ، والـشعب العربى هو أحد أخطر هذه الشعوب الملونة .

ثالثًا : العلاقة بين « واشنطن ،وتل أبيب » هى علاقة عـضوية بين حليفين ، ومعنى ذلك أن « واشنطن » لا يمكن أن تتبنى سوى وجهات نظر ومصـالح الكيان الصهيونى فهل نحن فى حاجة لأن نذكر أين يقف هذا الكيان من القومية العربية .

أيهما أكثر أهمية ؟

على أولئك الذين يحجون إلى « واشنطن» أن يفهمـوا جميع هذه الحقائق . عليهم أن يعوا حقيـقة اللعبة الدولية التى تدور رحاها حول المنطـقة ، وهل أستطيع أن أسأل الرئيس حسنى مبارك : أيهما أكثر هيبـة فى «واشنطن » الرئيس «جمال عبد الناصر » وهو مهزوم عسكريًا عقب حرب الأيام الستة ، أم الرئيس « السادات » وهو منتصر عقب حرب أكتوبر؟

وكم مرة ذهب « جمال عبد الناصر » إلى الولايات المتحدة يستجدى رضاء رعاة البقر ؟ وهل أستطيع أن أسأل « الملك فهد » : لماذا هذا الاستسلام وأنت الذى أنقذت الاقتصاد الأمريكى وأعدت للدولار الأمريكى هيبته بفضل الهبات السخية فى شكل أذونات للخزانة الأمريكية عندما كان الدولار يتدهور وينزلق إلى أسفل يوميًا ؟ أنت تمثل قوة معينة فلماذا الاستسلام ؟ وإن كان الأمر كذلك ، ألا تعلم أن لذلك فن واستراتيجية؟ هل أذكرك يا سيدى بواقعة : عندما أراد « نيكسون » أن يلتقى « بماوتسى تونغ » تعين على زعيم الدولة الأمريكية المتغطرس أن يحج إلى « بكين » ، وفرضت عليه القيادة الصينية أن يخلع حذاءه قبل الدخول فى قدس الأقداس ، وظل ينتظر على باب الزعيم الأكبر عدة ساعات ، حتى سمح له بأن يمثل فى حضرة القائد ، هكذا تعلمت الولايات المتحدة كيف تتعامل مع الدولة الصفراء .

فهل آن لنا أن نتعلم فن السياسة ؟

نعم : نحن أمة السياسة لم نعد نعرف معنى السياسة .

رغم ذلك : سوف أظل أصرخ بعروبتى ، وثقتى فى مستقبل تلك العروبة ؛ لأننى أعلم أن كل ليل لا بد وأن ينتهى بشروق الشمس » .

obeikandl.com